دور المدارس في شبه القارة الهندية في علم الحديث بها

إعداد:

الحافظ عبد الوحيد بن مولانا عبد الحليم

يحكي لنا التاريخ أن الفتوحات الإسلامية التي قام بها محمد بن القاسم في السند، فازت بنصيب كبير في توحيد المنطقة تحت راية واحدة، حيث خضعت الهند والسند كلها تحت حكم الإسلام، وبالتالي تسبب هذا إلى نتائج بعيدة المدى في حقول العلم والثقافة، ولقد وفد إلى الهند كثير من العلماء واختلطوا بأهل البلاد فأثروا فيهم تأثيرا ملموسا في مجال الثقافة والعلم، ولما آلت الدولة الغزنوية لسبكتكين سنة ٣٨٧ هـ، فجلس على عرش الملك عشرين سنة كان فيها عادلا خيرا ذا مروءة، وحسن عهد ووفاء مما ساعدته في فتح كثير من مدن الهند، وبعد أن فتح الغزنويون الهند كان قائدهم محمود الغزنوي نصيرا للعلم والثقافة [١].

وفي عهد السلطان مسعود صارت لاهور مركزا هاما للتعليم الإسلامي وخرجت نخبة من كبار العلماء والمصنفين، حيث اتخذوها

---

[١]- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي للدكتور حسن إبراهيم حسن ٣ /٨٩-٩٦، الطبعة السابعة عام ١٩٦٥م.

عاصمة للأراضي الخاضعة للغزنويين [1]، وأفلحوا في تكوين هوية إسلامية، حيث أقاموا المدارس الدينية لنشر الدعوة الإسلامية، والعلوم المتنوعة من التفسير والحديث والفقه، وسأشير إلى المدارس المهمة في القارة الهندية التي تأثرت بها قديما وحديثا.

المدارس الدينية في الدولة الغزنوية:

من المعلوم أن المدارس الإسلامية لم تكن معروفة في زمن الصحابة ولا التابعين ولا من بعدهم،إنما بدأ تأسيسها بعد القرن الرابع الهجري وأول من بنى في الإسلام مدرسة أهل نيسابور في الهند، وأشهر ما بني في القديم المدرسة النظامية والمستنصرية ببغداد [2].

أما أهل الهند فلم يكن عندهم معرفة بإنشاء المدارس على الطريقة المعروفة الآن، وكل ما كانوا يعرفونه أن الملوك يوضفون العلماء من كل مذهب ويغدقون عليهم العطايا، والناس يقصدونهم من كل ناحية ينتفعون بعلمهم، وكانوا يقومون بهذه المهمة، أما في المساجد أو البيوت ومع ذلك فإن بعض الملوك والأمراء أسسوا

---

[1] – نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر للسيد عبد الحي بن فخر الدين الحسني ١/٩٥.

[2] – اللغة العربية في باكستان للدكتور محمود محمد عبد الله المصري ١/ ٤٣.

قصورا للمدارس وبنوا فيها دورا وسكن للطلاب وسوف نذكر المدارس التي أسست في العهد الغزنوية وهي كالآتي.

١- المدرسة الفيروزية:

التي كانت بمدينة "اج" من بلاد الهند، كانت أيام ناصر الدين قام بالتدريس فيها منهاج الدين أبو عمرو عثمان بن محمد الجوزجاني [١].

٢- المدرسة الكبيرة:

التي كانت بمدينة "سبوستان" نزل بها الرحالة المعروف بمحمد بن بطوطة المغربي، حينما قدم سبوستان سنة ٧٣٤ من الهجرة أيام السلطان، محمد شال تغلق.

قال ابن بطوطة: نزلت بتلك المدينة بمدرسة كبيرة فيها، وكنت أنام على سطحها [٢].

٣- المدرسة الكبيرة العظيمة:

المدرسة التي تولى بناءها السلطان قطب الدين، الكشميري، المتوفي سنة ٧٩٦ من الهجرة، بمدينة قطب الدين بورة، بأرض

---

[١]- المرجع السابق.

[٢]- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار لابن بطوطة.

كشمير"، وقد أدت دورا كبيرا حساسا في خدمة العلوم الإسلامية، وتخرج فيها نخبة من العلماء والمحدثين، منهم جوهر المحدث [١].

٤- المدرسة المعزية:

التي قامت بمدينة "بديوان" كان لها أكبر الأثر في نشر وإشاعة العلم والأدب، بالإقليم الشمالي من الهند، منها انبثق نور العلم، وعم الإقليم كله، وهذه المدرسة أنشأها السلطان شمس الدين التمش، في أعقاب المسجد الذي بناه بنفس البلدة سنة ٦٢٠ من الهجرة، وسماه "المعزية" نسبة إلى سيده، ومولاه السلطان محمد الغوري، الذي كان لقبه معز الدين، كما كان يلقب بشهاب الدين أيضا .

ومن العلماء الذين كان لهم شرف التدريس والإفادة بتلك المدرسة العالم الكبير "زين الدين البديواني" المتضلع في العلوم الإسلامية والآداب العربية [٢].

٥- المدرسة الفيروزية:

التي بناها فيروز شاه الدهلوي سنة ٧٥٥ من الهجرة، وكانت جامعة بين الحسن والحصانة، يجري فيها الماء الغزير، ولا يوجد لها نظير في الدنيا، قال العلامة عبد الحي اللكنوي نقلا عن القاضي ضياء الدين في تاريخه من المدرسين جماعات يدرسون في كل علم، معقول،

---

[١]- اللغة العربية في باكستان للدكتور محمود محمد عبد الله المصري.

[٢]- المصدر السابق.

منقول، أكبرهم الشيخ جلال الدين الرومي، وصاحبه يوسف بن جلال الحسن.

٦- مدرسة العلامة عبد الله التلبيني

الذي قدم دهلي في عهد السلطان اسكندر اللودهي، فسماه السلطان اسكندر اللودهي "ملك العلماء"، وتخرج علي يديه جماعة من العلماء الأفاضل وهو الذي وسع نظام الدرس، وأدخل فيه الكتب الدقيقة من المعقول، وكانت الكتب الشائعة قبل ذلك شرح الشمسية في المنطق، وشرح الصحائف في الكلام، ولذلك نري أن هذه المدرسة كان لها فضل في نشر وإدخال بعض الكتب الحديثة في ذلك الزمان.

٧- المدرسة التي أسستها "ارجي" روجة محمودة بمدينة جونبور سنة ٨٠٦ من الهجرة، وبنت بجوارها مسجدا، وأجرت الأرزاق الواسعة على العلماء والموظفين، ولما تولى السلطان اسكندر اللودهي مدينة جونبور أمر عامله بهدم القصور السلطانية، فهدموا المدرسة تبعا للقصور.

٨- المدرسة المحمودية:

كانت هذه المدرسة بدار الملك "مندو" بناها السلطان محمود شاه الخلجي، سنة ٨٣٩ من الهجرة، وأجرى على العلماء والطلاب الأرزاق الواسعة فادت دورا محمودا في نشر العلوم الإسلامية.

٩- مدرسة العلامة الشيخ عثمان في سنة ٨٦٣ من الهجرة بعثمانبور

أدت هذه المدرسة دورا بارزا في نشر العلوم والثقافة، ومنها محمد شاه الكجراتي، الكتب النفيسة من الخزانة السلطانية فسهل لطلاب العلم الانتفاع والاستفادة بها.

١٠- المدرسة التي بناها الوزير عماد الدين محمود القباني

أقيمت هذه المدرسة بمدينة أحمد آباد لبلاد الهند، وكانت في غاية من الروعة والحسن، أحاطها بسور ملحق به سكن لطلاب، ومقاصير مشيدة وبداخلها مسجد واسع يؤدون فيه الصلوات.

وكان عماد الدين يغدق عليها الأرزاق، ويعطي الطعام واللباس للطلاب، كما أوقف عليها الأموال والأراضي سنة ٨٧٤ من الهجرة، وقد قامت بدور عظيم لخدمة الإسلام وعلومه، وكانت عامرة بالطلاب والعلماء إلى عهد عالمكير بن شاهجهان.

وولي التدريس بها الشيخ محمد حسين البيجابوري سنة ١٠٩٩ من الهجرة، وفي عام ١١٠٧ الهجري، قامت عاصفة شديدة أدت إلى سقوط منارة المسجد على المصلين، فمات بسببها خمس مائة رجل منهم الشيخ محمد حسين.

المدارس الإسلامية في عصر المغول:

وفي عصر المغول أسست المدارس الإسلامية الكثيرة في شبه القارة الهندية منها:

١- المدرسة التي بناها مرزا برهان الدين:

الملقب بفاضل خان بمدينة سري نكر "أيام ولايته بكشمير ما بين سنة ١١١٠ هجري إلى سنة ١١١٣ الهجري، وكان ذلك في عهد عالمكير بن شاهجهان الدهلوي، وقد وقف عليها المزارع الواسعة وبني عندها مسجدا وحماما.

٢- المدرسة التي بناها العلامة محمد فاضل البدخشاني:

بمدينة لاهور، وتولي التدريس فيها بنفسه، بعد ما اعتزل من الوظيفة التي كان يقوم بها بديوان العذل، في معسكر السلطان جهانكير ولد شاه جهان سنة ١٠٤٤ من الهجرى، وقد استفاد من الشيخ جمع غفير من الناس، تخرج على يديه نخبة طيبة من العلماء الأفاضل.

٣- المدرسة العظيمية بمدينة سيالكوت:

التي وضع أسسها الداعية العلامة عبد الحكيم بن شمس الدين السيالكوتي، وقد منحه السلطان شاه جهان قرى عديدة لهذه المدرسة،

وقام الشيخ بنشر العلوم الإسلامية فدرس وأفاد حقبة من الزمان، وانتفع بعلمه الغزير خلق كبير من أهل الفضل والمعرفة، ثم تولاها أولاد الشيخ إلى زمن بعيد وكان لهم دور فعال في نشر وإشاعة اللغة العربية والعلوم الإسلامية.

٤- المدرسة المباركة:

التي أسسها محدث الهند داعيها الشيخ عبد الحق بن سيف الدين الدهلوي، وتعتبر أول مدرسة بمدينة دهلي، لنشر الحديث، وعلومه، وقد وقف عليها السلطان جهانكير المزارع الواسعة، وتولى أمر التدريس فيها المحدث المذكور، والذي ملأ آفاق البلاد علما، ونورا مدة من الدهر، ثم أولاده المفتي نور الحق والشيخ علي محمد، والشيخ محمد هاشم، وسبطه أبو رضا بن إسماعيل فتخرج على أيديهم جمع كبير من العلماء الأفاضل.

٥- مدرسة دار البقاء:

التي أسسها السلطان شاهجهان ما بين سنة ١٠٦٠ الهجري إلى سنة ١٠٨٠ من الهجرة، بمدينة جهان آباد عند الجامع الكبير، وتولى التدريس فيها الشيخ يعقوب البياني، وقام بنشاط واسع في نشر العلوم والثقافة مدة طويلة، ثم اندرست فأحياها المفتي صدر الدين الدهلوي، وجددها على نفقته، وأوقف عليها العلماء للتدريس والإفادة، زمنا

طويلا إلى أن طويت أنفاسها في الفتنة الكبرى عام ١٢٧٣ الهجري، فلم يبق لها عين ولا أثر.

٦- المدرسة التي أسستها كبرى بيكم:

أسستها زوجة السلطان شاهجهان سنة ١٠٤٠ من الهجري في الجامع الكبير الذي بنى من الحجارة المقيمة، وكانت عامرة زمنا طويلا، وولي التدريس بها الشيخ عبد القادر بن ولي الله الدهلوي، وهذه أيضا من المدارس التي وقع عليها البلاء من الانجليز فصارت كسابقتها لا يسمع لها ذكر.

٧- المدرسة العظيمية:

التي بناها الشيخ ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي بمدينة شاه جهان آباد، وكان والده يسكن خارج المدينة، حيث كان مسكن آبائه واجداده، وقد قام الشيخ ولي الله بالتدريس فيها مدة طويلة، وكذلك الشيخ عبد العزيز بن ولي الله الدهلوي، ولما كف بصره ولى التدريس بها أخوه الشيخ رفيع الدين والشيخ عبد القادر وبعد ذلك الشيخ إسحاق والشيخ يعقوب وبعدهم، خلق كبير من علماء تلك المديرية الذين لهم فضل كبير في نشر العلوم الإسلامية في شبه القارة الهندية.

٨- المدرسة العظيمة ببلدة عظيم آباد:

أسسها نواب سيف الدين خان سنة ١٠٦٧ الهجري، على ضفة "نهر كنك" اختيار لها موقعا جميلا وبنى بجوارها مسجدا ضخما، وحوله مساكن للعلماء ودور للطلاب ووقف عليها الأراضي والقرى العديدة، ومن الأساتذة في هذه المدرسة، السيد ظريف، والشيخ نظام الدين اللكنوي المعروف بالسيد كمال والشيخ تاج الدين الأودي، وغيرهم من العلماء.

٩- المدرسة الكبيرة:

أسسها الشيخ إكرام الدين الكجراتي، حينما كان واليا على كجرات ومضى في بنائها أكثر من سنتين، وبذل عليها أموالا طائلة، وأخيرا جلب إليها العلماء وأغدق عليهم العطايا، كما عين رواتب الطلاب لكي يتفرغوا لطلب العلم، وكان رئيس المدرسة الشيخ نور الدين محمد صالح الكجراتي.

١٠- المدرسة المنصورية:

أسسها حمد الله بن شرافت السندي المولود سنة ١١٤٦ الهجري، ووقف عليها القرى العديدة للنفقة عليها بإشارة الوزير المنصور خان، ولذا سميت المدرسة بالمنصورية، وقام بالتدريس بها ملا حمد الله، ونجله الشيخ حيدر علي، والشيخ باب الله الجونبوري،

وتخرج على أيديهم نخبة فاضلة من العلماء الكرام، ونكتفي بذكر هذه النماذج للمدارس التي تأسست في عصر المغول حتى تأسس باكستان، وهذا العصر بالذات قد كثرت فيه المدارس الإسلامية.

ولما دخل الإنجليز الهند بواسطة شركة الهند الشرقية EAST INDIAN COMPANY التي أسست في لندن عام ١٦٠٠ من الميلاد، لشراء المنتجات الهندية، وفي عام ١٦٧٦م أقامت مراكز تجارية في أنحاء البلاد وأخذت تسيطر على البلاد رويدا رويدا إلى أن استولت عليها نهائيا عام ١٨٥٧م استولت على الدولة الإسلامية المغولية التي حكمت الهند أكثر من ثلاثة قرون.

وكان أول فكرة للحكومة البريطانية أن تروج فيهم نظاما جديدا للتعليم والتربية يتمشى مع متطلبات العصر، ويتفق مع أهوائهم وأفكارهم، وهذا النظام لم يكن فيه أدنى نصيب للعلوم الإسلامية والتربية الدينية، فجعل العلماء يتصيدون له بالأفكار والمعارضية، ويقومون بالتنكير في وجهه إلى أن اندلعت كثير من الثورات من العلماء والمجاهدين ضد الإنجليز، وأنظمتهم الخبيثة، وأخيرا تم النصر وجلا الإنجليز عن الهند وتأسست دولة باكستان في ١٤ أغسطس ١٩٤٧م.

وفي هذه الفترة قامت مؤسستان بجهود مشكورة وأسهمتا بنصيب وافر في خدمة الدين الإسلامي، وقد تخرج منها نخبة من رجال الفكر والأدب والحديث ملأت مؤلفاتهم مختلف المكتبات في شتى

أنحاء البلاد هما الجامعة الإسلامية المعروفة بدار العلوم ديوبند، ومدرسة مظاهر العلوم بسهانبور، وفيما يلي نتحدث عنهما.

الجامعة الإسلامية "دار العلوم ديوبند:

قام بتأسيسها جماعة من أهل العلم والفضل، وفي طليعتهم الكبير الشيخ محمد بن قاسم النانوتوي وأسس دار العلوم ديوبند، لتكون معقلا للمسلمين، وقاعدة ينطلقون منها لحماية الإسلام، وقد أسس الشيخ هذه المدرسة في ١٥ محرم عام ١٢٨٣من الهجرة، الموافق شهر مايو عام ١٨٦٦ الميلادي، بديوبند التي تقع على بعد مائة ميل من شمال العاصمة الهندية "دهلي"، وساهم في بناءها الفكري والعلمي الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي المتوفي سنة ١٣٢٣هـ، وتولى إدارة الدار رجال ملخصون يمتازون بالعلم والورع، منهم الشيخ حافظ أحمد من نجل الإمام النانوتوي، الذين توسعت الجامعة في عهده توسعا ملحوظا، وخلفه بعد موته نجله الإمام التقي الشيخ محمد طيب، ولا شك في أن دار العلوم ديوبند اهتم بأنشطتها المتنوعة التي لم تقتصر على تدريس العلوم الدينية بل اهتم أيضا بالعلوم العصرية وتعليم مختلف الحرف والمهن، ولذا أنشأت أقساما للصناعات اليدوية وتعليم الخط، والنسخ حتى يتمرن الطلبة في فن النسخ، والمهارة في الخطوط العربية، والفارسية، كما يوجد بالدار"كلية الطب اليوناني" تخرج منها كثير من الأطباء من الأقسام التي لها دور فعال في تربية

الطلاب، وتدريبهم بما يفيدهم في حياتهم، ومن المعلوم أن طائفة الديوبندية الموجودة في شبه القارة الهندية ينتمون لهذه الجامعة [١].

ثانيا: مظاهر العلوم بسهارنبور:

قام بتأسيسها أولا مولانا أحمد علي السهارنبوري، أحد العلماء الصالحين توفي رحمه الله سنة ١٢٩٧ الهجري، وسماها "المدرسة العربية" التي كانت في قرية القاضي محل، ثم حولها مولانا مظهر النانوتوي إلى مفتي محل، سماها"مظاهر العلوم" وهي من أقدم المدارس الدينية التي كانت تعتني بنشر العلوم الدينية عامة، والسنة السنوية خاصة في أنحاء القارة الهندية منذ قيامها [٢].

ومن هاتين المدرستين تفرعت مدارس أخرى ساهمت في نشر اللغة العربية والعلوم الدينية وهي:

دار العلوم المعروف بندوة العلماء:

التي أسست عام ١٣١١ من الهجرة، المصادف ١٨٩٤ من الميلاد، أسسها نخبة من رجال الفكر والأدب، وبعد عام من إنشاء

---

[١]- تاريخ دار العلوم ديوبند للسيد محبوب رضوي ص ٦٠، ترجمان الجامعة الرشيدية رقم الإشاعة ٨٠، وانظر الموسوعة الإسلامية الموجزة باللغة البنغالية ٢/٥٠.

[٢]- أصول الحديث وتاريخه لمولانا محمد الأعظمي ص ٢٥٤ في جزء واحد.

الندوة أسسوا بجوارها مدرسة عربية باسم "دار العلوم التابعة لندوة العلماء" التي كان يرأسها السيد علي المذكور.

والحق في أن يقال أن هذه الدار قد لعبت دورا هاما في انعاش اللغة العربية الفصحي في بلاد بعيدة من العربية بل بين شعب مغبط بلغاته المتعددة، كما انجبت صفوة من العلما المثقفين بالثقافة الإسلامية من رجال الفكر والقلم، وعلماء الندوة هم أقدر على التحدث باللغة العربية من غيرهم، ويظهر هذا جليا في كتابتهم وكتبهم ولا سيما كتب العلامة عبد الحي وغيره من العلماء [1].

وقد قام نخبة من المحدثين بتأسيس المدارس المذكورة وغيرها من المؤسسات التعليمية الرسمية كانت لها دور ملحوظ في نشر التفسير والحديث والفقه، وغيرها من العلوم الشرعية، وانتشر أضوائها إلى أقطار الهند وغيرها من البلاد، فقدم الطلاب إلى الهند من مشارق الهند، ومغاربها، ومن الخراسان والبلخ والبخارا، واستفادوا من مشائخها.

[1] ـ تذكرة مشائخ ديوبند لمولانا مفتي عزيز الرحمن ص ١٩١- ٢٠٠.